عرض الكتب

كتاب قصة الإيمان

بين الفلسفة والعلم والقرآن

عرض ودراسة

الدكتور عبد الرحمن عميرة

(قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن) لفضيلة الاستاذ الشيخ نديم الجسر مفتي فلسطين ولبنان الاسبق ، يعتبر من أعمق الكتب التي أخرجتها المكتبة الاسلامية في السنوات الاخيرة ، ومن أكثرها جدية ، وهو كتاب يوحي للقارىء عند النظرة الفاحصة المتانية أن مؤلفه كاتب متمكن زاول الكتابة من فترة طويلة ، ومفكر أصيل يحترم عقله وعقول الآخرين ، وباحث منظم يكتب لطبقة خاصة من المثقفين ، ومسلم عرف الطريق الى كتاب ربه فعايشه معايشة جادة وقارىء مدمن عكف على المكتبة العربية ففض جواهرها ، واستوعبها استيعاب الناقد البصير ، وأحب دينه فرابط على حدوده ، يذب عنه هجمات المضلين ويدفع عن حياضه عبث الملحدين .

والمؤلف لم يكتف بقراءة المكتبة العربية والاسلامية ، بل عكف على انتاج الاجانب من فلاسفة ومفكرين فقرأه بلغاتهم ، وفحصه كما يفحص الجواهرجي الاحجار الكريمة ، فمر على معتمها مرور الاكرمين وأشار الى مشعها اشارة العارفين .

وكتابه الذي بين أيدينا – يتعرض لقضية الصراع الوهمي بين العلم والدين ويناقش بموضوعية قواعد المؤيدين وحجج المعارضين بالحوار الهادف الذي يعتمد على أرقى ماوصل اليه العقل البشري من أساليب المحاجةوالتوجيه من استقراء واستنباط وحوار .

ويرمز المؤلف لهذا الجيل ، الذي تتلقفه الافكار المتضاربة ، وتضلل سلوكه التيارات المنحرفة بشاب تربى تربية دينية ، وأمضى طفولته الناعمة ، وصباه الطري ، في حضانة والد تقي ، ثم التحق بجامعة أمرها موكول الى نفر من العلماء الجامدين الذين عاشوا حياتهم يجترون الحواشي والذيول ، ويقررون على طلابهم الطلاسم والالغاز مبتعدين عن صفاء القرآن ومجانبين للسنة النبوية الكريمة .

والطالب يملك بين جنبيه نفسا طلعة ، وعقلا وثاباً الى المعرفة ، وكان يريد أن يعرف سر الوجود وكنه الخلق ، وحقيقة الحياة ، فالقى بين أيديهم بما يريد فلم يلق الا الزجر والصد والوعيد .

ولما يئس منهم مضى يلتمس الجواب عن أسئلته في كتب الفلاسفة والاقدمين فلم تزده هذه الكتب الا حيرة وضلالا ، وبلغت المحنة ذروتها عندما طرد من الجامعة ، وفر منه الخلان وتحاشاه الاقران ٠

وعلم والده بما يعانيه ابنه فأشفق عليه ، وطلب له من ربه أن يلهمه الهدى ويرشده الى الحق وقال فيما قال :

(لقد مررت قبلك يابني بما تمر به الآن ، وذقت مرارة الشك ووطأة الحيرة ، ثم أراد الله بي خيرا ، فكانت نجاتي بكلمة سمعتها من شيخي العالم الفقيه (أبور النور الموزون السمرقندي)

وهكذا يرمز المؤلف بالشيخ الموزون عن العلماء العاملين الذين في مقدورهم أن يوجهوا الشباب ويرشدوه ، ويباعدوا بينه وبين لهيب الشك ووقدة الالحاد ٠٠

ويجمع المؤلف في كتابه بين الشاب الحائر وشيخه الموزون في مكان بعيد متطرف ، في منأى عن ضجيج المدينة الزائفة وتأثيرات أضوائها الباهرة وتشكيك وسائل اعلامها العابثة ٠

وهكذا يلتقي في المكان الهادىء ــ بجوار أحد بيوت الله ــ القديم والجديد والايمان والشك ، والضياع والاستقرار ، ليصلا في النهاية معا الى مرفأ الايمان ، وشاطىء المعرفة ، حيث ينضج عقل الشاب بما قدمه له شيخه من العلم ، فعرف ربه وتكشفت بصيرته عن عجائب خلق الله في الكون والحياة ٠

والكتاب مقسم الى عدة مباحث يتناول كل واحد منها موضوعا من الموضوعات وفكرة ترتبط بما بعدها ارتباط الاثر بالمؤثر ، حتى ظهر الكتاب وكأنه وحدة واحدة تناولت خصائص الايمان ومبحث الوجود ، وأسرار الكون ٠

وسنحاول ــ بمشيئة الله ــ أن نقدم بين يدي القارىء صورة عن هذا الكتاب ــ نرجو من الله سبحانه وتعالى ــ أن تكون معبرة ووافية لمحتوياته

وأن تكون في نفس الوقت داعية لابنائنا من المفكرين والباحثين للتعرف عليه واقتنائه والزود من معارفه التي وصفها بعضهم بأنها قفاز قوية قادرة على تهشيم رأس الالحاد ·

أما عن المبحث الاول : فان المؤلف يستعرض فيه آراء المفكرين القدماء والمحدثين عن مبحث الالوهية ،باعتبار أن فكرة وجود الله الحق لم تخل منها الارض منذ صار الانسان انسانا يمتاز بالعقل المفكر ·

ويقدم المؤلف آراء فلاسفة اليونان وفكرتهم ـ البدائية ـ عن مبحث الجوود بعبارة منتقاة وأسلوب علمي ميسر ، بعيدا عن تهويمات المفكرين وتعقيدات المتفلسفين المتهوسين ·

ف (اكزنوفنس) ـ في رأيه ـ يسمو على أهل عصره ـ عندما نبذ أساطير اليونان القائلة بفكرة التجسيد البشري للاله ، وسخر من آلهتهم التي تاكل وتشرب وتلد وتموت يقول :

(ان الناس هم الذين اخترعوا الآلهة وتصوروها بمثل هيئاتهم ، ولو كانت الثيران أو الاسود أو الجياد تعرف التصوير لرسمت لنا الآلهة على أشكالها ثورا أو أسدا أو جوادا كلا ثم كلا انه لايوجد غير اله واحد ، هو أرفع الموجودات ، ليس مركبا على هيئتنا ولا يفكر مثل تفكيرنا بل كله بصر وكله سمع ، وكله فكر)

واذا كان (اكزنوفنس) يقول هذا فان (بارميندس) يقول عن الوجود بأنه أزلي لايتغير ولا يفنى ، وليس له ماض ولا مستقبل بل هو يستوعب الازل والابد ، وهو لايتحرك ولا يتجزأ لأن الحركة صورة للتحول وهو كامل وليس وراءه وجود آخر)

وجاء بعده (اناكسا غورث) فزاد عما قاله الاوائل خطوة جديدة بقوله :

(من المستحيل على قوة عمياء أن تبدع هذا الجمال وهذا النظام اللذين يتجليان في هذا العالم لأن القوة العمياء لاتنتج الا الفوضى فالذي يحرك المادة هو عقل رشيد بصير حكيم)

ثم يستعرض من المؤلف أقوال السفسطائيين ويقدم لنا رد سقراط على اضطرابهم وتخبطهم ، ويتناول (مثل) تلميذه (أفلاطون) بوصفها معان مجردة وأن عناصر وجودها من نفسها لا من شيء خارج عنها وأنها أساس الاشياء ولا تعتمد على شيء بل غيرها يعتمد عليها وهي دائمة وثابتة وأبدية وساكنة وكاملة ، ولا يحدها زمان ولا مكان)

ويعقب على هذا الكلام بقوله :

(ان أفلاطون كان مؤمنا بوجود الله ومن القائلين بأنه الخالق للعالم والمدبر لأمره ، ويقيم على ذلك براهين أهمها برهان النظام فيقول :

(ان العالم آية في الجمال والنظام ، ولايمكن أبدا أن يكون هذا نتيجة علل اتفاقية بل هو صنع عاقل كامل توخى الخير ورتب كل شيء عن قصد وحكمة)

المبحث الثاني : يتحدث فيه عن موقف الفلاسفة المسلمين من قضية واجب الوجود فيصفهم بأنهم جمعوا الى ايمان الوحي الصادق ، ايمان العقل السليم ، ولكنهم مع هذا أخذوا بترهات الافلاطونية الحديثة وخيالاتهم في مراتب الخلق ووسائطه واختلط عليهم الامر فحسبوها من كلام أرسطو وحال اجلالهم للمعلم الاول دون تمحيصها ، لذلك كان على من يكتب عن هؤلاء ويميز بين مافيها من الحق النير والباطل المظلم ، وهذا مالم يفعله الذين كتبوا عنهم اما عجزا عن التمييز أو زهدا في نصرة الايمان أو كيدا للحق)

ثم يفرد حديثا مطولا للدفاع عن الرازي ويصفه بأنه من أصدق المؤمنين ويستدل على ذلك بقوله :

(ان وجود العقل في بعض الكائنات الحية وقدرتها على اتقان الصنعة يدل على وجود الخالق الذي أحسن كل شيء خلقه)

ثم يتكلم عن الفارابي ويقدم بين يدي القارىء أدلته في دفاعه عن

العقل باثبات أحكامه الاولية البديهية التي تعتمد على البراهين كلها واتخذ من هذا طريقة الى اثبات وجود الله بقوله :

(ان الموجودات على ضربين أحدهما (ممكن الوجود) والثاني (واجب الوجود) وممكن الوجود اذا فرض غير موجود لم يلزم عنه محال وليس بغنى بوجوده عن علته ، واذا وجد صار واجب الوجود بغيره لا بذاته أما واجب الوجود ، فمتى فرض غير موجود لزم عنه محال ، ولا علة لوجوده ولا يجوز كون وجوده بغيره ، والاشياء (الممكنة) لا يجوز أن تمر بلا نهاية في كونها علة ومعلولا ولا يجوز كونها على سبيل الدور ، بل لابد من انتهائها الى شيء واجب هو الموجود الاول الذي هو السبب الاول لوجود الاشياء وهو الله تعالى)

ويترك الفارابي وأدلته ليتكلم عن ابن سينا ويدخل مباشرة في عرض أدلته في المعرفة ووسائلها ويتناول أدلته على اثبات وجود الله سبحانه وتعالى بالعرض والتحليل ويقدم نصوصه التي ذكرها في تجلية هذا الدليل بقوله :

انه لاينبغي أن نلتمس البرهان على اثبات الباري بشيء من مخلوقاته بل ينبغي أن نستنبط من امكان ماهو موجود ، وما يجوز في العقل وجوده أولا (واجب الوجود) وهذا العالم « ممكن » يحتاج الى علة تخرجه للوجود لأن وجوده ليس من ذاته وبهذا لانحتاج في اثبات الاول الى تأمل بغير نفس الموجود من غير أن نحتاج للاستدلال عليه بشيء من مخلوقاته ، وان كان ذلك دليلا عليه الا أن الاستدلال الاول أوثق وأشرف ، والاستدلالان كلاهما موجودان في قوله تعالى :

(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) (١)

فاذا انتهى المؤلف من عرض أدلة ابن سينا في اثبات الوجود ، تناول ابن خلدون وأقواله في علم الاجتماع وركز على نظرية المعرفة عنده وبسطها بسطا وافيا ثم يقدم اعتراف ابن خلدون بعجز العقل عن ادراك كنه الاشياء بذاتها بقوله :

(ولا تثق بما يزعم لك الفكر ، من أنه مقتدر على الاحاطة بالكائنات وأسبابها والوقوف على تفصيل الوجود كله ، وسفه رأيك في ذلك ، واعلم أن الوجود عند كل مدرك في بادىء رأيه ، منحصر في مداركه لايعدوها والامر في نفسه بخلاف ذلك والحق وراءه) (٢)

يقول ذلك ثم يخشى أن يفهم من كلامه اتهام العقل بالعجز المطلق الذي قال به الشكاك وأهل السفسطة فيبادر الى القول :

(وليس ذلك بقادح في العقل ومداركه بل العقل ميزان صحيح وأحكامه يقينية لا كذب فيها ، غير أنك لاتطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة ، وحقائق الصفات الالهية وكل ما وراء طوره ، فان ذلك طمع في محال ، ومثال ذلك : مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال ، وهذا لايدل على أن الميزان في أحكامه غير صادق ولكن العقل قد يقف عنده ولا يتعدى طوره ، حتى يكون له أن يحيط بالله وصفاته) (٣)

أما رأيه في الوجود فيعتمد فيه على الدليل المشهوردليل الحدوث فيقول : (ان الحوادث في العالم ، سواء أكانت من الذوات أو من الافعال ، لابد لها من أسباب متقدمة عليها ، وكل واحد من هذه الاسباب حادث أيضا فلا بد له من أسباب أخرى ، ولا تزال تلك الاسباب مرتقبة حتى تنتهي الى مسبب الاسباب ، وموجدها ، وخالقها سبحانه لا اله الا هو ..

أما المبحث الثالث :

فيتكلم فيه عن ابن طفيل وآرائه التي ضمنها قصته (حي بن يقظان) ويرى المؤلف أن ابن طفيل لولا مجاراته لابن سينا وغيره على أوهامهم في مراتب الصدور لكانت قصته تعتبر قصة الحق أو قصة العقل الذي عرف كيف يتدرج في مسالك المعرفة حتى عرف الله والحق والخير والجمال .

ويقدم لنا خلاصة موجزة لافكار هذه القصة موضحا فيها الحقائق التي أراد أن يصل اليها من خلال مؤلفه هذا وهي كالآتي :

أ – المراتب التي يتدرج بها العقل ، في سلم المعرفة ، من المحسوسات الجزئية الى الافكار الكلية .

ب – ان العقل الانساني قادر من غير تعلم ولا ارشاد على ادراك وجود الله بآثاره في مخلوقاته ، واقامة الادلة الصادقة على ذلك .

ج – ان هذا العقل قد يعتريه الكلال والعجز في مسالك الادلة ، عندما يريد تصور الازلية المطلقة ، والعدم المطلق ، واللانهاية ، والزمان والقدم والحدوث وما شاكل ذلك .

د – ان العقل سواء ترجح لديه (قدم العالم أو حدوثه) فان اللازم من كل واحد من الاعتقادين شيء واحد ، هو وجود الله .

هـ – ان الانسان قادر بعقله على ادراك أسس الفضائل ، وأصول الاخلاق العملية والاجتماعية والتحلي بها واخضاع الشهوات الجسدية لحكم العقل من غير اهمال لحق الجسد أو تفريط فيه .

و – ان ما تأمر به الشريعة الاسلامية وما يدركه العقل السليم بنفسه من الحق والخير والجمال يلتقيان عند نقطة واحدة بلا خلاف .

ز – ان الحكمة كل الحكمة هي فيما سلكه الشرع من مخاطبة الناس على قدر عقولهم ، دون مكاشفتهم بحقائق الحكمة وأسرارها وان الخير كل الخير للناس هو في التزام حدود الشرع وترك التعمق (٤)

المبحث الرابع :

يتحدث فيه حديثا مستفيضا عن الغزالي وأسباب شكه الذي عاش فيه فترة من الزمن ، ثم عكوفه على كتب الفلسفة يفند آراءهم ويبطل حججهم ويرفع عليهم معاول هدمه .. حتى قيل في ذلك العصر : لن تقوم للفلسفة قائمة بعد هذا الهجوم (٥)

وكما دافع المؤلف عن الغزالي وقدم الكثير من أدلته في نقض أفكار

الفلاسفة واتباعهم ، شهر قلمه للدفاع عن ابن رشد ، وأخذ يتلمس له الاعذار في أقواله ومصنفاته ·

فيذكر أن ماقدمه ابن رشد من أفكار وآراء ليست كلها له ولكن بعضها لأرسطو ، وبعضها من أغلاط الترجمة التي تردى فيها ابن رشد ويرجع اضطرابها لشدة اعجاب ابن رشد بأرسطو ·

ثم يعود في النهاية الى لومه والغوص الى أعماقه عندما يقول : ان ابن رشد لم يكن مخلصا كل الاخلاص في وضع كتابه (تهافت التهافت) ولم يقصد به ابطال الحقائق التي دافع عنها الغزالي ، بل أراد اظهار خطئه في طريقة الاستدلال وتقصيره في فهم مقاصد الفلاسفة ، ويصل في النهاية الى قوله

وكان رحمه الله في غنى عن هذا اللمز والتلفيق مع رجل يدافع عن الدين ويصفه بأنه كان في هجومه على الغزالي أشبه بتاجر يريد أن يكسد بضاعة جاره لتروج بضاعته ، وما هذا شأن المتاجرين في مرضاة الله وجهاد في سبيله ·

وفي نهاية هذا المبحث يقدم لنا المؤلف مايشبه الاعتذار على لسان ابن رشد بقوله :

(ويشبه أن يكون المختلفون في هذه المسائل العويصة ، اما مصيبين مأجورين ، واما مخطئين معذورين ، فان التصديق بالشيء من قبل الدليل القائم في النفس هو شيء اضطراري ، لا اختياري ، واذا كان شرط التكليف الاختياري فالمصدق بالخطأ من قبل شبهة عرضت له اذا كان من أهل العلم معذور) (٦)

ويصل من ذلك الا أن كل العقول السليمة تتفق في مجال النظر العقلي الخالص المبرأ من شوائب الهوى على الاعتراف بوجود الله وعلى الاقرار الصريح بأنه واحد أحد لايتعدد ولا يتحول وتتفق في طرق الاستدلال على هذا الحق الذي لاريب فيه (٧)

المبحث الخامس :

في هذا المبحث يتكلم عن مجموعة من مفكري الغرب أمثال باكون ، وديكارت وباسكال ، ومالبرانش ، وسبينوزا ، وليبنتز ، وهيوم ، وكانط ، وبرجسون ·

ويرى المؤلف أن هؤلاء الفلاسفة تتلاقى أفكارهم مع أفكار فلاسفة المسلمين في نقطتين :

الاولى : الايمان بالعقل ·

والثانية : الايمان بوجود الله ووحدانيته ·

ثم يستعرض هذه الافكار ويقدم لنا أدلة هذا التلاقي ف (باكون) يرى أن أول خطوة في الفلسفة يجب أن نبدأ بها هي دراسة القوانين الخاصة لننتقل منها الى دراسة القوانين العامة ، ولا نزال نتراقى حتى نصل الى القانون العام الاكبر ·

وهذا ماذهب اليه الفيلسوف العربي ابن رشد الذي يرى أن معرفة الله تأتي عن طريق درس الجزيئات من آياته في مخلوقاته ·

ويتلاقى بيكون مع القرآن على الايمان بالله والعجز عن ادراك كنه ذاته سبحانه عند النظر في حقيقة ذبابة فيقول :

(انه لايوجد عالم من علماء الطبيعة يستطيع أن يعرف كل شيء عن حقيقة ذبابة واحدة ، وخواصها ، فضلا عن أن يعرف كنه ذات الله فكانه يتلو قول الله تعالى :

(ياأيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له ان الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له ، وان يسلبهم الذباب شيئا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ماقدروا الله حق قدره ان الله لقوي عزيز) (٨)

وديكارت استخرج اليقين من الشك ، وجعل من نفس الشك سبيلالاثبات وجود الله ومعرفة صفات كماله بقوله :

(أنا موجود فمن أوجدني ومن خلقني ؟ انني لم أخلق نفسي ، فلا بد لي من خالق وهذا الخالق لابد أن يكون واجب الوجود وغير مفتقر الى من يوجده أو يحفظ له وجوده ولابد أن يكون متصفا بكل صفات الكمال وهذا الخالق هو الله بارىء كل شيء)

فما أشبهه بالغزالي في شكه ويقينه ؟

ان ديكارت استدل بنفسه وبالعالم على الله وكماله ثم استدل بوجود الله وكماله على صدق العقول وعلى وجود العالم فاتخذ الله دليلا وشاهدا على مخلوقاته فصدق عليه في هذا قول الله تعالى :

(سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد) (٩)

أما باسكان فيقول : ان الحواس تخدع والعقل يخطيء ولكن بالقلب وحده نعرف الحق ، فبالقلب نعرف المبادىء الاولى ومعنى الزمان والمكان والحركة ، والعقل انما يؤسس ادراكه على هذه المعارف التي هي قضايا أولية ، ولو أردنا البرهان عليها لوجب أن نفرض وجود قضايا أخرى سابقة ولو قلنا بذلك لذهب بنا التسلسل ، ولما أمكن الوصول الى قضايا أولية ، فبالقلب ندرك هذه الحقائق وبالقلب ندرك وجود الله (١٠)

وباسكال لهذا يتلاقى مع الفارابي وابن سينا حين يقول :

(ان ادراكنا لوجود الله ، هو من الادراكات الاولية التي لاتحتاج الى جدل البراهين العقلية : فانه كان يمكن أن لاأكون لو كانت أمي ماتت قبل أن أولد حيا فلست اذا كائنا واجب الوجود ولست دائما أو لانهائيا فلا بد من كائن واجب الوجود ، دائم لانهائي يعتمد عليه وجودي ، وهو الله الذي ندرك وجوده ادراكا أوليا بدون أن نتورط في جدل البراهين العقلية ، ولكن الذين لم يقدر لهم هذا الايمان القلبي أن يسعوا للوصول اليه بعقولهم ·

وفي هذا يلقي باسكال حكمته الاجتماعية التي هي أشبه بكلام العارفين حيث يقول :

(هناك صنفان من الناس فقط يجوز أن نسميهما عقلاء ، وهم الذين يخدمون الله جاهدين لانهم يعرفونه ، والذين يجدون في البحث عنه لأنهم لايعرفونه) (١١)

أما لوك فانه يفرق بين ادراكنا لوجود الله وادراكنا لامور الغيب ، ويرى أن معرفتنا بوجود الله هي معرفة برهانية تقوم وترتكز على أساس المعرفة البديهية ٠

أما الامور الغيبية الاخرى كالبحث في كنه هذا الخالق وكنه الروح وحقائق الاشياء في ذاتها فان لوك يجيب عنها بحكمة تجدر باصحاب العقول أن يتعرفوا عليها من ذلك قوله :

(لو بحث الناس عن قواهم العقلية بحثا جيدا ، وكشفوا عن الافق الذي يفصل بين الاجزاء المضيئة والاجزاء المظلمة وميزوا بين مايمكن فهمه ومالا يمكن لاطمأنوا الى جهلهم في الجانب المظلم ورضوا به ولاستخدموا أفكارهم وأبحاثهم في الجانب الاخر استخداما أنفع وأبعث على الاطمئنان ٠٠

وهذا الكلام الذي يقوله (لوك) يكاد يتفق مع ماذكره البيروني في كتابه « تحقيق ماللهند من مقولة »

(يكفينا معرفة الموضع الذي يبلغه الشعاع ولا نحتاج الى مالايبلغه وان عظم في ذاته فما لايبلغه الشعاع لايدركه الاحساس ، وما لايحس به فليس بمعلوم) (١٢)

أما (برجسون) فانه يتكلم عن نظام (الزوجية) في الكون والحياة ليرد به على أصحاب المذهب المادي أولئك الذين يقولون بتكون الخلائق بطريق المصادفة ـ قاتلهم الله ـ والانتخاب الطبيعي ، وفي رده عليهم دلل على فساد مذهبهم وسخر من تهافتها بقوله :

(كيف تستطيع عقولنا أن تصدق أنه بطريق المصادفة والتطور والانتخاب الطبيعي قد تكونت حاسة الابصار عند جميع الحيوانات ٠٠؟ انه من المستحيل أن تكون العين بتركيبها العجيب الغريب المعقد قد نشأت من المادة مباشرة ، ومن أول أمرها على هذه الصورة المتكاملة ، واذا أخذنا بمذهب التطور ، وقلنا مع القائلين : ان حاسة الابصار عند جميع الحيوانات تكونت وبلغت هذا الكمال بعد سلسلة من التطورات الحديثة بسبب ناموس الانتخاب الطبيعي ، وتأثير البيئة والظروف والاحوال التي تكتنف الحيوان فهل نستطيع أن نقنع عقلا سليما بأن الادوار والظروف والاحوال التي مرت بها عين الانسان ، تطابق تمام المطابقة الادوار والظروف والاحوال والمؤثرات التي مرت بها عيون جميع الحيوانات ٠٠ ؟

ان الانتخاب الطبيعي مبني على المصادفة لان القائلين به ، يزعمون أن الحي يقع تحت تأثيرات مختلفة ، ولكن مايتفق لهذا الحي من المؤثرات لايمكن أن يتفق بذاته لكل الاحياء بل لابد من اختلاف في العوامل المؤثرة ولا بد في النتيجة من اختلاف في تكوين حاسة الابصار فكيف يعقل أن يتم بالمصادفة تطور حاسة الابصار وتكونها في جميع الحيوانات على صورة واحدة ٠٠ ؟

ومن هنا ينتقل (بوجسون) الى (نظام الزوجية) فيزيد في تهكمه على الماديين حيث يقول :

(واذا سلمنا جدلا بأن المصادفة السحرية العجيبة جائزة الوقوع في تكوين حاسة ابصار واحدة في جميع الحيوانات ، وسهلنا على أنفسنا سبيل القناعة بقولنا أن الحيوانات ترجع على كل حال الى نوع واحد ، فماذا نقول في النبات وهو نوع آخر يسير في طريق مختلف كل الاختلاف عن طريق الحيوان ، اذا نحن رأيناهما متفقين في طريقة واحدة من طريق الحياة ؟

اننا نرى أن النبات والحيوان يتبعان طريقا واحدة في عملية التناسل فكيف اتفق أن اخترع الحيوان الذكورة والانوثة ، ووفق النبات الى الطريقة نفسها ، وبالمصادفة نفسها ؟

كلا انه يستحيل أن يكون هذا الاساس الواهي الذي يسمونه (الانتخاب الطبيعي) أساسا لهذا الاتفاق ، ولا بد أن يكون في جميع أجزاء الوجود مهما

تنوعت أنواعه ، واختلفت أجناسه قوة متشابهة هي الحياة ، وهذه الحياة هي التي تبدع وتغير وتبدل ، والتطور يتم بقوة هذه الحياة ، لابقوة المؤثرات الخارجية وخالق هذه الحياة هو الله تعالى ·

المبحث السادس

وفي هذا المبحث بالذات يحاول المؤلف أن يعيش مع كتاب الله سبحانه وتعالى فترة طويلة ليقدم لنا في النهاية سجلا متكاملا من الآيات البينات التي تدل على وجود الله وتشير الى عظمته في الكون والحياة ، فاذا انتهى من ذلك توجه الى علماء الاسلام موضحا لهم حقيقة رسالتهم ، ومبينا لهم مدى حدود المسئولية الملقاة على عاتقهم بقوله :

(ليس المفروض في علماء الدين أن يكون علمهم قاصرا على المعنى الاصطلاحي للفقه الذي يراد به استنباط أحكام العبادات والمعاملات لأن الفقه هو الفهم لكل شيء ولكل مافي الدين من أسرار وحكم وأحكام وأول مايجب أن نفهمه هو كلام الله ، وأول شيء يجب أن نفهمه من كلام الله هو الآيات الدالة على وجود الله · وهذه الآيات لاتفسر على الوجه الاكمل الا اذا اطلعنا على مافي الكون من أسرار الخلق ، والنظام والاحكام والاتقان فعلماء الدين هم أولى الناس بالاطلاع على أسرار العلم ، ولا يصدق عليهم (الحصر) الوارد في قوله تعالى :

(انما يخشى الله من عباده العلماء)

فهذه الآية لم ترد في سياق الكلام على أمر يتعلق بالعبادات أو المعاملات أو الاخلاق ، بل وردت في سياق الدلالة على قدرة الله وحكمته في انزال المطر وخلق النباتات ، والحيوانات على اختلاف أنواعها وألوانها حيث يقول الله تعالى :

(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانه وغرابيب سود ، ومن الناس

والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك ، انما يخش الله من عباده العلماء) (١٣)

المبحث السابع : بعنوان في الآفاق

ويكاد يكون هذا المبحث من أطول مباحث الكتاب يتكلم فيه عن قدرة الله في الآفاق ، ويبدأ ذلك بالسموات ، ويستعرض فيه آيات الله سبحانه وتعالى ثم يعقب ذلك بأخر أبحاث العلم والعلماء وتصوراتهم ورصدهم للقوة الخارقة والابداع المتقن للذي أتقن كل شيء خلقه وكل شيء عنده بمقدار وصدق ربي في قوله :

(والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون) (١٤)

واذا كانت السماء لانرى منها غير هذا الجانب المبسوط فوقنا ، وما أودعه الله فيها من كواكب ونجوم ٠

فان الارض المبسوطة والجبال المرفوعة ، والبحار الموضوعة ، والانهار الجارية ، وما فيها من زروع ونخيل صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد وتختلف في الاشكال والالوان وتتباين في الاذواق والطعوم لدليل على الخالق المبدع القدير الحكيم الذي قال في محكم كتابه :

(والارض مددناها والقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون) (١٥) ثم يتكلم عن قدرة الله في خلق القمر ويوضح هذه الحسابات الدقيقة لكل كوكب من الكواكب بقوله :

(لو كانت المسافة بين القمر والارض أقل مما هي أو أكثر ، أو كان حجمه أكبر مما هو أو أصغر ، أو كانت دورته أطول أو أقصر ، لاختل هذا النظام كله بل ربما زال القمر كله ، لانه لو قرب من الارض لزاد جذبه فأصبح المد على الارض طاغيا يغمر اليابسة كلها ، وان تزايد هذا القرب جذبته الارض فوقع عليها ، ولو بعد عن الارض لتعطل عمل المد والجزر بقلة الجذب وان زاد البعد جذب القمر كوكب آخر اليه وحرمنا من نعمه ، ولو كبر حجمه لزادت قوة جذبه ، ولو صغر لقلت ، ولو كانت دورته مثل دورة بقية التوابع قصيرة قصيرة في ساعات أو طويلة طويلة في سنين لاختل هذا

النظام الذي جعل الله لنا به القمر حسبانا وعاد شهرنا القمري أسبوعا او سنين .

وصدق ربي قوله :

(وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ماخلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون) (١٦)

انها رحلة مع الذهن الذكي والعقل الالمعي الذي طوف بنا في عقول العلماء والمفكرين ، وبين ثنايا الكتب ، وأعماق الموسوعات وكان دليله في كل ماكتب كتاب ربه وفرقان العزيز المتعال وكان لرحلته هذه غاية جعلها نصب عينيه ، دائما وهو يخط كل كلمة ، ويسطر كل حرف .. ثم عاد جواب الآفاق بهذه النتيجة التي توصل اليها .

ان الباحثين يختلفون عقلا وذكاء وصبرا وجلدا فمنهم العباقرة الاقوياء الذين يكابدون ليل الشك حتى يصل بهم التفكير السليم الى صبح اليقين فلا يعبأون بعد اليقين بشك مبهم لايحدث تناقضا عقليا مع هذا اليقين الذي أدركوه ، ومنهم الضعفاء الذين ترزح عقولهم تحت عبء الشكوك فيقف بهم التفكير في العقاب الصعاب وتنقطع بهم الهمم دون اقتحامها فيجعلون كل العقل عن تصور الشيء حجة على امكان تعقله أو يتخذون من غموض الحكمة في فرع من فروع الخلق والتدبير سببا للشك في الاصل الذي يشهد عليه اليقين فيقفون حائرين بين وميض العقل وخبوه كما قال تعالى :

(مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لايبصرون) (١٧)

وأيضا : يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا أظلم عليهم قاموا) (١٨) وجمدوا أمام شكهم وقالوا : لاندري .

وتوصل أيضا عن طريق المقارنة : على أن الادلة العقلية التي ذكرها القرآن على وجود الله والادلة التي ذكرها الفلاسفة والعلماء من المسلمين وغير المسلمين واستدلوا بها على وجود الله ووحدانيته وجميع صفات كماله

على أن الحق واحد ، وطرق الاستدلال عليه واحدة ، سواء أكان اهتداء العقول بالتفكير قدحا في نفسها ، أم قبسا من القرآن ، فهذا التلاقي بين وحي العقل الذي خلقه الله لنا ، ووحي القرآن الذي أنزله الله علينا ، دليل قاطع على أن الدين الحق لايتنافى ولا يتعارض مع العقل في شيء أبدا ، وفي النهاية يجب أن نقول ان هذا الكتاب دعوة الى الايمان بالله الواحد الاحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحدا ·

والايمان بالله هو :

أس الفضائل

ولجام الرذائل

وقوام الضمائر

وسند العزائم في الشدائد

وبلسم الصبر عند المصائب

وعماد الرضى والقناعة

ونور الامل في الصدور

والعروة الوثقى بين الانسانية ومثلها الكريمة في كل زمان ومكان ، فمتى تعرف البشرية هذا الطريق لتتعود السير فيه ·· ؟

متى يارب ·· ؟

أقوال العلماء في هذا الكتاب :

قرأت كتاب (قصة الايمان) وأنا معجب كل الاعجاب بما حواه من عبر رائعة وحكم بالغة ، فغصت في أعماقه ، ووقعت على درره ، وما درره ومابلغت نهايته ، حتى خرجت وأنا موقن أن هذا الكتاب يوضح الطريق المستقيم للجيل ، ويظهر معالم الدين الحنيف وقابليته للتطور والمدنية ، بالحدود التي رسمها القرآن الكريم ، وياليت المسلمين يتخذونه نبراسا يضيء لهم معالم الطريق ٠

سمو الامير فهد الفيصل

قضيت مع هذا الكتاب بضعة أيام كانت سياحة عقلية عميقة الاثر بعيدة المدى عدت بعدها الى نفسي وأنا فوار القلب واللب بمشاعر اليقين ولوامع المعرفة ، ثم أحسست بأن هذا الكتاب ليس تراثا فكريا خاصا قدر ماهو جهاد خالص لنصرة الحق واعلاء كلمة الله فقررت أن أشرك معي في الاطلاع عليه علماء المساجد في القاهرة كي يستبينوا مارسم من مناهج اليقين وطرائق الوصول الى الله جل جلاله

محمد الغزالي

ولعمر الحق ماأظن أن قضية الايمان الذي يعيش اليوم كالغريب بين تيارات الزيغ والالحاد وجاهلية العلم يمكن أن تخدم بمثل ماخدمها هذا السفر الجليل الذي جاء وفاء كفاء لحاجة العصر في الفكرة والاسلوب وسأعرض على كلية الشريعة بدمشق أن تطبعه وتجعله منهل روادها ٠

دكتور / مصطفى الزرقا

وهنا يقف بنا مؤلف الكتاب وقفات لا ليثبت مافي القرآن من علم وانما ليثبت حاجة المؤمن الى العلم ليفهم القرآن ويتعمقه ، ولا ليثبت لنا مافي القرآن من فلسفات وانما ليثبت المنهج الاستدلالي فيالقرآن ويشخصه ويعرضه على المناهج الفلسفية في أرقى عصورها وجوهر حقيقتها فاذا النتائج مذهلة ٠

دكتورة / سهير القلماوي

كتاب (قصة الايمان) يتمثل فيه أسلوب الاديب ، ومنطق الفيلسوف ووجدان المؤمن ، فمن أجل ذلك قررنا أن يكون فيه امتحان القبول للدراسات العليا شعبة العقيدة والفلسفة ، ثم قررنا أن يكون فيه امتحان القبول في شعبة الدعوة والارشاد فعلنا ذلك تقديرا للعلم وأهله ٠

د ٠ عبد الحليم محمود

أعترف بادىء ذي بدء أن كتاب (قصة الايمان) ليس من الكتب التي تقرأ على عجل ويستوعبها القارىء في بساطة ويسر ، وانما هو كتاب يجب أن يتزود له من يطالعه بكل طاقاته العقلية والروحية والوجدانية ٠

د ٠ بنت الشاطيء

أقول لصاحب كتاب (قصة الايمان) أنك فتحت به طاقات من نور المعرفة والايمان وأرسيت به قواعد اليقين في نفوس الناشئة والشباب وأزلت به الكثير مما علق في أذهان الناس من تشكك وزيف

ولا عجب أن أقف في قصة الايمان على علم غزير ، وعقل حصيف وملكه مزودة بفنون المعرفة والادب والعلم ، كما أنه لاعجب أن أقرأ فيه لغة رفيعة وأسلوبا مبسطا ٠ وقد أثلج صدري أن أقرأ لسماحتكم كتابا من الطراز الرفيع يدافع عن العقيدة الاسلامية بأسلوب سهل لايرتضى عصرنا سواه ، ولا غنى لنا عن مثله ٠

حسن خالد
مفتي الجمهورية اللبنانية

هو كتاب يؤلف بين العلم الاسلامي الواسع ، والايمان العميق والنظر الفلسفي تاليفا بديعا مبتكرا ، ويجدر بالاساتذة وطلاب الجامعات أن يطالعوه ويتأملوه ، وسأذكر للطلاب في جامعة دمشق وأنصحهم بالرجوع اليه ٠

د ٠ عبد الكريم اليافي

ثبت بالمراجع :

١ ـ القرآن الكريم ·
٢ ـ صحيح الامام البخاري
٣ ـ صحيح الامام مسلم
٤ ـ مقدمة ابن خلدون ـ تحقيق د · على عبد الواحد وافي
٥ ـ قصة حي ابن يقظان ـ تحقيق د · عبد الحليم محمود
٦ ـ مناهج الادلة في عقائد الملة ـ لابن رشد ـ تحقيق ـ د· محمود قاسم
٧ ـ مقاصد الفلاسفة ـ للغزالي ـ تحقيق د · سليمان دنيا
٨ ـ تهافت الفلاسفة للغزالي ـ تحقيق د · سليمان دنيا
٩ ـ الاشارات لابن سينا ـ تحقيق د · سليمان دنيا
١١ ـ تحقيق ماللهند من مقولة : للبيروني ـ تحقيق عبد الحليم محمود
١٢ ـ قصة الفلسفة الحديثة ـ د أحمد أمين ـ وزكي نجيب محمود
١٣ ـ قصة الايمان بين الفلسفة والعلم والقرآن ـ نديم الجسر
١٤ ـ ابن رشد ـ تاليف د · محمود قاسم
١٥ ـ قصة حي ابن يقظان ـ لابن سينا ـ تحقيقق د · أحمد أمين
١٦ ـ جريدة الاهرام المصرية الصادرة في ٢٧ ـ ٧ ـ ١٩٦٢
١٧ ـ مجلة المجتمع العلمي العراقي
١٨ ـ مجلة حضارة الاسلام
١٩ ـ مجلة دعوة الحق المغربية
٢٠ ـ مجلة المدينة المغربية
٢١ ـ مجلة المسلم لسان العشيرة المحمدية ـ القاهرة
٢٢ ـ مجلة التمدن الاسلامي ـ دمشق

الهوامش

١ ـ سورة فصلت آية رقم ٥٣

٢ ـ مقدمة ابن خلدون

٣ ـ المصدر السابق ـ تحقيق علي عبد الواحد وافي

٤ ـ قصة حي بن يقظان ـ تحقيق د • عبد الحليم محمود

٥ ـ التفكير الفلسفي للاسلام ـ عبد الحليم محمود

٦ ـ مناهج الادلة في عقائد الملة ـ لابن رشد تحقيق د • محمود قاسم

٧ ـ ابن رشد ـ د • محمود قاسم

٨ ـ سورة الحج آية رقم ٧٣

٩ ـ سورة فصلت آية رقم ٥٣

١٠ ـ قصة الفلسفة الحديثة

د • أحمد أمين • وزكي نجيب محمود

١١ ـ قصة الايمان بين الدين والعلم والقرآن ـ نديم الجسر

١٢ .. تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرزوله ـ للبيروني

١٣ ـ سورة فاطر آية رقم ٢٨

١٤ ـ سورة الذاريات آية رقم ٤٧

١٥ ـ سورة الحجر آية رقم ١٩

١٦ ـ سورة يونس آية رقم ٥

١٧ ـ سورة البقرة آية رقم ١٧

١٨ ـ سورة البقرة آية رقم ٢٠